

## الفهم القرآني لقضايا إنسانية من خلال رسائل النور

د. مهدية أمnoch<sup>P</sup>

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على دارس الآثار العلمية للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مدى الصلة الوثيقة بينها وبين القرآن الكريم من حيث الاهتمام، الاستمداد والاقْتباس. فرسائل النور في أصلها هي اهتمام و عكوف على القرآن الكريم درسا و شرحا و تقريبا للأذهان بشتى الطرق و الوسائل، و ذلك من خلال التوسل بالطاقات الروحية المتدفقة و المستمدة من هذا النص المقدس بالرجوع إلى استشهادات من سوره و آياته المعجزة.

وهكذا و بما أن سبل هداية الإنسان و طرق صد غوايته هي محور القرآن، فإن رسائل النور تبعا لذلك و جدت مركزها في الاهتمام بالإنسان هي الأخرى. كيف لا و هي ظل القرآن و لغة من لغاته. القرآن الذي نزل لكي يجيب عن أسئلة عديدة حيرت البشرية منذ آدم إلى غاية مجيئ محمد، فإنبرى في سوره المتنوعة و المتجانسة معالجا قضايا الإنسان في بعده النفسي (الفردى) و في بعده الاجتماعى (الحضارى) و في بعده الزمنى (التاريخى).

كما أن العلوم الإنسانية المترجمة لاجتهادات الغربيين في العصر الحديث استحضررت (بدورها) هذه القضايا و جعلت منها أبوابا أساسية في تحليلاتها و قراءاتها.

إذن فالبحث عن ماهية الإنسان في أصله و طبيعته و نفسه و علاقاته بغيره هو قاسم مشترك بين القرآن و علوم الإنسان. لكن الفارق المميز بينهما يظهر في أشياء

---

\* من مواليد مدينة تطوان – المغرب. خريجة كلية اصول الدين التابعة لجامعة القرويين بفاس، و كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط. حصلت على شهادة الدراسات العليا سنة 1989. عينت سنة 1996 استاذة في كلية الآداب و العلوم الإنسانية في جامعة عبد الملك السعدي بتطوان. وهي عضو مؤسس لمجموعة البحث في الفكر و الحضارة و عضو في وحدة التكوين و البحث في الأدب و الحضارات الشرقية. و عضو منظم لعدد من الندوات و المؤتمرات.

عديدة وأبرزها كما يرى الأستاذ سعيد النورسي في الغاية التي يهتم من أجلها بالإنسان. فالغاية في القرآن ليست هي الغاية في علوم الإنسان. وكذا المنطلق. إن محاولة دراسة الإنسان ، أو محاولة معرفته عن طريق المنهج البشري ليست جديدة، بل يمكن أن نجد بدايتها الأولى في الفكر الديني القديم (الهندي، الإغريقي). وقد أدى اهتمام المفكرين بدراسة الإنسان - عبر تاريخ طويل - إلى وضع علوم إنسانية تروم التشبه بالعلوم الطبيعية، على نحو انتهى بها إلى الصورة المعاصرة التي نتبدي عليها الآن.

و طالما أن العلوم الإنسانية تتعلق بالإنسان أو هي التي يكون محورها الإنسان ، فإن البحث في فلسفتها يظل على درجة كبيرة من الصعوبة. ففي الوقت الذي نجد فيه القرآن ينطلق من قاعدة ثابتة للجواب على أسئلة الإنسان و إيجاد حلول لمشكلاته نجد علوم الإنسان ما هي سوى محاولات مختلفة (متناقضة في بعض الأحيان) و غير قارة تعرف تحولا مستمرا و لا تعرف ثباتا في الضبط و التحديد<sup>1</sup>.

أمام هذه العلاقة المعبر عنها من خلال عنصرين غير متكافئين نجد للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي (في رسائل النور) تعليقات متعددة بشكل دقيق و متمعن يشرح من خلالها الأبعاد الثلاثة للإنسان معتمدا في ذلك الأسس القرآنية للتفهيم و التصوير.

و أهم ما يتعلق بالإنسان و يرد عند الأستاذ النورسي بشكل مكثف هو الجزء المختص بالنفس. إذ تكاد جل المقالات و التفسيرات تنصب في هذا الجانب سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. فهي الموضوع المحوري الذي يستلزم درسا و رعاية كبيرين من طرف الإنسان ذاته ، و في ذلك يوجه الأستاذ سعيد النورسي نداء لمن يتدبر قائلا: "فيا من يعد نفسه إنسانا حقا ، اقرأ نفسك بنفسك ، و إن لم تفعل تلبد حسك و تجمد عقلك و هبطت من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة أدنى<sup>2</sup> "

الأمر موجه هنا بالقراءة و التمعن و فتح البصيرة، و مستنده قوله تعالى: [وفي الأرض آيات للموقنين. و في أنفسكم أفلا تبصرون]<sup>3</sup> وذلك قصد معرفة حقيقته. وكم هو صعب أن يدرك الإنسان ذاته بشكل دقيق و صحيح دون أن يكون مغلوبا على أمره فيغيب عنه ميزان التفرقة بين نفسه كذات باحثة عارفة و بين نفسه كموضوع بحث ينبغي أن ينظر إليه عن بعد و استقلال ما أمكن حتى لا يسقط في اندماج تام، فيعسر عليه من ثم أن يتخلص من دفاعه عن نفسه و مدحه لها لينزهاها

1- وقد يكون ذلك راجعا إلى عدة أسباب منها إخضاع الإنسان لتجارب تطبيقية أو قياس سلوكه و أوجه نشاطه المختلف قياسا عدديا دقيقا

2- سعيد النورسي - النوافذ ص 162

3- سورة الذاريات - الآية 21

عن كل عيب أو قصور<sup>4</sup> فيقربها إلى التقديس بل يبلغ به الأمر أن يكون مصداق الآية الكريمة: [من اتخذ إلهه هواه] وقوله تعالى: [إن النفس لأمارة بالسوء]<sup>5</sup> و إذا ما أحب الإنسان نفسه الأمارة بالسوء ضل .  
و لكن هذا لا يعني عند الأستاذ النورسي نهاية العالم و استحالة تقويم الاعوجاج. بل إن القرآن قد أوجد وسائل خارقة لتحقيق مسألة التوازن في النفس الإنسانية ومنها صوم رمضان حيث يقول سبحانه وتعالى: [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون]<sup>6</sup> [و أن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون]<sup>7</sup>

و يرى الأستاذ النورسي أثر هذا الفرض الديني في كونه "يُشعر أشد الناس غفلة و أعتاهم تمردا بضعفهم و عجزهم و فقرهم. فبواسطة الجوع ، يفكر كل منهم في نفسه وفي معدته الخاوية و يدرك الحاجة التي في معدته ، فيتذكر مدى ضعفه و مدى هزالته، و مدى حاجته إلى الرحمة الإلهية و رافتها ، فيشعر في أعماقه توقا إلى طرق باب المغفرة الربانية بعجز كامل و فقر ظاهر متخلياً عن فرعة النفس متهيئاً بذلك لطرق باب الرحمة الإلهية.<sup>8</sup> " و يقول في موضع آخر "إن النفس بطبيعتها ترغب الانفلات عن عقابها حرة طليقة، و تتلقى ذاتها هكذا، حتى أنها تطلب لنفسها ربوبية موهومة، و حركة طليقة كيفما تشاء... و لكن تبدأ نفس كل شخص بالنقطن في ذاتها في رمضان المبارك ، ابتداء من أغنى غني إلى أفقر فقير ، فتدرك أنها ليست مالكة بل مملوكة، و ليست حرة بل هي عبدة مأمورة... و بهذا ينكسر غرور ربوبيتها الموهومة"<sup>9</sup> .

إلى جانب هذه الوجهة السلبية للنفس الإنسانية يرى الأستاذ النورسي أن هناك وجهة أخرى إيجابية تستلهم من فيض نور القرآن الكريم و هي أن: الإنسان نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق سبحانه و تعالى بجميع أسمائه الحسنی المتجلية<sup>10</sup> من وجوه عدة منها:  
أن الظلام سبب لرؤية النور، أي أن ظلام الليل و شدته يبين النور و يظهره بشكل أكثر وضوحاً... فالإنسان أيضا يعرف بضعفه و عجزه و بفقره و حاجاته و بنقصه و قصوره قدرة التقدير ذي الجلال و قوته العظيمة، و غناه المطلق و رحمته الواسعة.

فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجلية. بل حتى إن ما يحمله من ضعف شديد يجعله يتحرك مستندا ، يقيم أمره و يدعمه - وهو عاثر عليه بدون شك - إذا ما تركت نفسه و فطرتها.

4- سعيد النورسي - الإخلاص و الاخوة ص 53

5- سورة يوسف - الآية 53

6- سورة البقرة - الآية 182

7- سورة البقرة - الآية 183

8- سعيد النورسي - الشكر ثمرة الحياة و غاية الكائنات ص 13

9- نفسه ص 12

10- سعيد النورسي - النوافذ ص 160

في مثل هذه المواقف يستحضر الأستاذ النورسي حكمة القرآن في ذكر آيات الأنفس.

و يلي قضية النفس الإنسانية موضوع آخر لا يقل أهمية عن الأول و لا ينفك عنه، إذ انه لصيق به، و دال عليه في صورة جمع لمفرد و هو "الاجتماع الإنساني" أو المجتمع، والذي جعل منه الأستاذ النورسي ميدانا لنشر نور رسائله القرآنية. فما فائدة الاجتماع البشري عنده إن لم يكن تعاونا و حقا لأجل الإعمار في الارض و السعادة في الدار الآخرة؟

"إن شأن (الحق) هو (الاتفاق) و شأن (الفضيلة) هو (التساند) و شأن دستور (التعاون) هو (إغاثة كل للآخر) و شأن (الدين) هو (الأخوة و التكاتف) ... و شأن (إلجام النفس) و كبح جماحها و إطلاق الروح و حثها نحو الكمال هو (سعادة الدارين)<sup>11</sup>

و لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المثل العليا لتكون شبكة العلاقات الاجتماعية خالية من الآفات المخلة بمتانتها و سلامتها؟

هنا نجد للأستاذ النورسي جوابا دالا ورد في فقرات شتى من رسائله نختزله في مسألة أساسية و هي عقيدة الآخرة<sup>12</sup> التي يعتبرها أس الأساس لحياة اجتماعية سعيدة . و القرآن الكريم - ذو البيان المعجز - يشهد بجميع معجزاته و حججه و حقائقه التي تثبت أحقيته ، على حدوث الحشر، و بيبته ، حيث أن ثلث القرآن، و أوائل اغلب السور الفصار آيات جلية على الحشر... من مثل [ إذا الشمس كورت ] ، [ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم] ، [ إذا زلزلت الأرض زلزالها ] ، [إذا السماء انفطرت] ، [ إذا السماء انشقت ]

و هكذا فإن نتيجة واحدة للإيمان بالحشر من بين مئات النتائج تفيد في بناء مجتمع إنساني فاعل، غير متفكك ، يؤمن بحياة أخرى أهم و أرفع. و يضرب لنا الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله أمثلة من العينات الاجتماعية المتنوعة.<sup>13</sup> الشيوخ و الشباب و الاطفال... فكل هؤلاء لا موجه لهم و لا مقوم لاعوجاجهم و لا هادي لهم إلا الله وذلك من خلال الإيمان بإيابهم إليه الذي يفتق في وسطهم قانونا اجتماعيا ساميا لا يحتاج فيه لقوة و لا سلاح و لا قهر و لا كبت حتى يتحقق المجتمع الأنموذجي و تغيب فيه عبادة الأشخاص و الأشياء ، لأنه متى ما ترسخ مبدأ الإيمان بالحشر و تيقن الإنسان حق اليقين بأن هذه الدنيا إلى زوال و بأن حياة أخرى ستستقبله بجد و حزم ليراجع فيما كان عليه سلوكه في الأولى .

متى ما استنتب ذلك في مجتمع ما فإن سلوكات أفراده ستستقيم لا محالة. و من هنا نجد الأستاذ النورسي يركز بإلحاح على ضرورة تغيير المجتمع بالنهج السلوكي التربوي الهادئ و المتدرج الذي يولد الحياة من الموت وليس العكس.

11- سعيد النورسي - الكلمات ص145-146

12- نفسه ص104

13- نفسه ص 104 - 105

و بذلك تكون نظريته في التغيير الاجتماعي ذات ملامح خاصة جدا تتميز بالتفرد من حيث الصبر و المجاهدة و الثقة بالنفس النابعة من الايمان القوي بقضية الإسلام المنتصرة حتما.

من الواضح أن البنية الفكرية السالفة الذكر، قادرة على تأسيس كيان إنساني متين في بعده السلوكي و الاجتماعي. كيان له فهم خاص للزمن و التاريخ الذي تتحقق إبانة أفعاله الحضارية و غيرها ... ف" الزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال - في كل سنة - عالما آخر يبرزه للوجود مجددا فيه صورا منتظمة في ثلاثمائة ألف نوع من أنواع مخلوقاته.."<sup>14</sup> و أفضلها الإنسان، و قد عبر النورسي رحمه الله عن ماهية الحياة بـ "مخزن مفاتيح كنوز الأسماء الإلهية... وخريطة مصغرة لنقوشها البديعة ... وفهرس تجلياتها..." وهي "رسالة ربانية تستقري نفسها لأخوتي المخلوقات من ذوات الشعور، وهي موضع مطالعة يعرف الخالق الكريم، و هي لوحة إعلان تعلن كمالات خالقي... وأن من حقوقها التزين بشعور تام بما أنعم عليها خالق الحياة - بالحياة - من هدايا قيمة و خلعا نفيسة لعرضها أمام نظر السلطان الجليل في العرض اليومي المكرر عرضا مكللا بالايمان و الشعور و الشكر و الامتنان.<sup>15</sup>"

كل ذلك بحس مدرك لأطراف الزمن الثلاثة : الماضي و الحاضر و المستقبل. و ذلك باعتماد التنوير القرآني في ضبط الحقائق و الأحداث و تمحيصها إن اضطرب أمرها عند من عرفوها عن طريق غير طريق القرآن الكريم . و يصور لنا الأستاذ النورسي أنموذجا من ذلك بـ " التاريخ الذي دونه الإنسان يضبط الحوادث إلى حد ما قبل ثلاثة آلاف عام، لذا فإن نظر هذا التاريخ الناقص القاصر لا يستطيع أن يحكم بصواب على حوادث ما قبل زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإما يذكرها مشوبة بالخرافات أو ينكرها أو يوردها باختصار شديد "<sup>16</sup> " أما التاريخ الصحيح و الحقيقي فذاك الذي يستشف مما ورد في القرآن الكريم الذي يعد بمثابة أصح و ثيقة تاريخية عرفها الإنسان منذ أن وجد.

و إزاء الماضي و أحداثه ، نجد للأستاذ النورسي ميزانا دقيقا للقياس حيث إن مراجعته لمقولات القدامى ظهرت من خلال منهج محصص و ناقد و مصحح سواء تعلق الأمر بالتاريخ القديم جدا أو الأقل قدما ، فمن أمثلة الأول تفسيره للآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر "ذي القرنين" وهو من باب تفسير التاريخ بالقرآن. ومن أمثلة الثاني، ما تعلق بأحداث جرت بعيد وفاة الرسول ﷺ لها صلة بحياة الأمة الإسلامية في مجالها السياسي . فموقفه من قضية الخلاف حول الخلافة جاء مدروسا وفق نهج موضوعي للغاية ؛ اعتمد الخبر الموثق و التحليل الموضوعي الرزين دون السقوط في متاهة الجدل العقيم أو الانتماء الأعمى غير المدعم بالحجة و الدليل .

14- سعيد النورسي - الكلمات ص 61

15- سعيد النورسي - الشعاعات ص 82

16- سعيد النورسي - اللعاعات ص 164

ومن ثم نجد بأنّ التعبير عن الزمن في رسائل النور مسألة مدركة بحس مرهف وبشكل جلي سواء تعلق الأمر بالماضي كما سبقت الإشارة إلى ذلك أو بالحاضر كما تبين هذه الكلمات :

"إن كل وقت من هذه الأوقات إشارات لانقلاب زمني عظيم و أمارات لإجراءات جسيمة و علامات لإنعامات إلهية كلية. لذا فإن تخصيص صلاة الفرض التي هي دين الفطرة في تلك الأوقات هو منتهى الحكمة.<sup>17</sup> " بحيث لا يفوت الأستاذ النورسي أن يعرف بقيمة كل لحظة يعيشها المرء في رحاب نور القرآن . فتخصيص أوقات معينة لحضور الصلاة ليست مسألة اعتباطية تمت بتلقائية أو بارتجال و إنما هي لحظات موزونة بمقياس دقيق تعبر عن حركة الزمن التي هي من فعل خالق الوجود و الدالة على آياته الكبرى المشعرة للإنسان بحقيقة أمر هذا الوجود.

ومن الحاضر ننتقل إلى المستقبل فنجد أن رسائل النور تستوعب هذا الأفق الرحب (الذي لا يستطيع أحد رسم حدوده) بإيمان و بثبات مستعينة في ذلك بأدوات منهجية مسعفة ألا و هي التوجيهات القرآنية المشروحة أحيانا بأمثلة حياتية بسيطة ، فترى تفسيرها لقضايا مستقبلية كالتالي:

"إن ما ورد في القرآن الكريم مرارا [إن كانت إلا صيحة واحدة] <sup>18</sup> [وما أمر الساعة إلا كلمح البصر] <sup>19</sup> يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود في آن واحد بلا زمان.

و لكن العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة لكي تقبل و تدعن لهذا الحدث الخارق جدا... فمثلا يمكن إنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة ، من مركز واحد في لحظة واحدة كأنها بلا زمان . كذلك يمكن إنارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء و بعثها<sup>20</sup>...

و للمتأمل في رسائل النور و خاصة في الشعاعات و في مسائل الشعاع الخامس بشكل خاص شق منهجي آخر يتعامل من خلاله مع أحداث "المستقبل" المقررة في الأحاديث النبوية. كمسألة "السفياني" التي سنل بصدها الأستاذ النورسي رحمه الله حيث ورد عليه " أن شخصا رهيبا - من أشخاص آخر الزمان - يصبح و إذا على جبينه مكتوب : هذا كافر " فيجيب:

"إن تأويل هذه العلامة و الله أعلم بالصواب هو:

إن ذلك السفياني سيلبس قبعة الإفرنج ، و يكره الناس على لبسها، و لكن لأنه يعمم لبسها بالإكراه و القانون ، و تلك القبعة ستتهدي بإذن الله حيث تهوي إلى السجود - لذا لا يكون كافرا من لبسها مكرها عليها غير راغب فيها<sup>21</sup>"

17- سعيد النورسي - الكلمات ص46

18- سورة يس - الآية 28

19- سورة النحل - الآية 77

20- سعيد النورسي - الكلمات ص121

21- سعيد النورسي - الشعاعات ص110-111

لعل الأستاذ النورسي وهو يقرأ المنقولات من أحداث المستقبل قد كان تحت تأثير الأيام السياسية الطارئة التي كانت تعصف بأمته حيث استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وفرض اللباس الإفرنجي عوض اللباس الأصيل للأمة واستحداث بدع كثيرة فيما يتعلق بحياة المجتمع التركي. فما استطاع أن يغفل الفرق بين واقعه وبين ما وصله من مغيبات المستقبل. وكأننا به يجد حاضر أمته في مستقبل العالم ونهاية الدنيا حيث ظهور السفيناني...

وبعد

فهذه لمحة خاطفة جدا عن هيكل "النظرية الإنسانية" في رسائل النور والتي تضمنت أبرز القضايا الإنسانية وهي النفس والاجتماع والتاريخ التي ألبسها الأستاذ بيدع الزمان سعيد النورسي حلة إنسانية جديدة مستقاة من الدروس القرآنية في الموضوع، وهو ما يتجلى (كما ألمحنا إلى ذلك في المقدمة) في المنطلق حيث يجد الإنسان نفسه شخصا ومجتعا وتاريخا في ما قدمه له الحق من أصول منهجية واضحة و مسطرة بلغة ليس في الوجود أوضح منها. كما أن الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه الفهم القرآني للقضايا الإنسانية ليس هو دراسة ظواهر سلوكية معينة وإخضاعها للتجربة ما أمكن. أو التوصل إلى قوانين عامة في ذلك - كما هو الشأن عند الدارسين في الغرب - بل هو أكبر من ذلك بكثير. فالمقصود هو بناء إنسان جديد متجدد في كل لحظة وإلحاق تلك المعاني القرآنية بكيانه حتى تؤتي ثمارها في حياته الفعلية سلوكيا وحضاريا...

### فهرس المصادر

- القرآن الكريم
- بيدع الزمان سعيد النورسي :- الإخلاص و الاخوة ترجمة إحسان قاسم الصالحي استنبول

1985

- الشكر ثمرة الحياة و غاية الكائنات ترجمة إحسان قاسم الصالحي استنبول 1985
- النوافذ ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 الموصل 1985
- الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1985
- الشعاعات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1993
- اللمعات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1993